مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 2 السنة: 2020
ص: 172 - 184 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

صراع الهويات في رواية الغريب لألبير كامو "من الأديان إلى الأنسنة"

Clash of identities in the novel "Stranger" of Albert Camus "From Religions to Humanization"

البشير بختي*
Bachir Bakhti
قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة المسيلة (الجزائر)
University of Msila- Algeria
bachir.bakhti@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال:2019/12/07	تاريخ القبول:2020/03/17	تاريخ النشر: 2020/06/02

ملخص البحث

يهدف البحث إلى التعرف على هوية ألبير كامو، وهو يعيش مع هوية أخرى مختلفة عنه في اللغة والدين وطريقة العيش والتفكير والنظر إلى الحياة. وقد أحدث هذا الفرق صراعا في شخصيته، وانفصالا في تواصله مع الآخرين، ووصل به الأمر إلى حد إقصائهم عن وطنهم.

ورغم أن ألبير كامو يعد من فلاسفة الحداثة الذين التزموا بقيم التنوير وتأثروا بالنزعات الإنسانية، فإن ذلك لم يغير من محتوى ما جاء في رواية الغريب؛ فقد كشف الكاتب عن معاداته للهوية الجزائرية ولم يعرها اهتمامه، في حين قدم صورة وافية عن هوية المستوطنين. وإذا كانت الرواية تعد محاكمة للاستعمار الفرنسي للجزائر، فإن هذه المحاكمة تعتبر شكلية، إذ لم تهتم بما تعرض له المجتمع الجزائري من ظلم؛ فقد أقدم على مساواة الجلاد بالضحية، واهتم أكثر بعلاقة المستوطنين بأمهم فرنسا.

الكلمات المفتاح : هوية، كامو، النزعة الإنسانية، الاستعمار، التأويل.

Abstract : The aim of this research is to shed the light on the identity of Albert Camus while living with an other identity different from that in language, religion, way of life, thinking and looking at life.This difference has caused a conflict in his personality and separation in his communication with others, and it reached the point of exclusion from their homeland. Although Albert Camus is one of the modern philosophers who adhered to the values of the Enlightenment and influenced by human tendencies, this

* البشير بختي. bachir.bakhti@univ-msila.dz

did not change the content of the novel , the author revealed his anti-Algerian identity and ignored it. In the meanwhile, he provided a full picture of the identity of the settlers(colonizers). And even the novel is a trial for the French colonization of Algeria, but this trial is a formality, and did not care about the injustice suffered by the Algerian society. He has equated the executioner with the victim and more concerned with the relationship of the settlers with their mother France.

Keywords: identity; Camus; humanism; colonialism.

1. مقدمة:

يُعد "ألبير كامو" من الأدباء الذين نالوا شهرة عالمية، بسبب أعماله الأدبية التي نالت جائزة نوبل. كما عُرف بالفلسفة الوجودية والتزامه بقضايا عصره في أدبه، مقتفيًا -في ذلك-"جان بول سارتر" في أدب الموقف.

ويظهر تأثير عصر الأنوار في أدب القرن العشرين جليًّا، بعد أن حمل معه تغييرات عميقة مست المفاهيم العامة للوجود الإنساني. وقد أحدث "إيمانويل كانط"، في هذا الإطار، بمقاله: ما الأنوار؟ مفهوما ثوريا لهذا العصر؛ يقول: «إن بلوغ الأنوار هو خروج الإنسان من القصور الذي هو مسؤول عنه، والذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير. وإن المرء نفسه مسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس نقصا في العقل، بل نقصا في الحزم والشجاعة في استعماله دون إرشاد الغير. تجرأ على أن تعرف كن جريئا في استعمال عقلك أنت ذاك شعار الأنوار»[1]. وبذلك استطاع فلاسفة عصر التنوير أن يمهدوا الطريق لاستخدام العقل في جميع المواقف التي تعترض الإنسان، وقد وجد "ألبير كامو"، وغيره من فلاسفة الحداثة الغربية، ضالتهم في العقل، فجعلوه منهجا لحياتهم، يحتكمون إليه في جميع قضاياهم، وذلك بعد أن استبعدوا العقل الغيبي، ودعوا إلى أنسنة الحياة.

فهل تجاوز ألبير كامو الخلفيات الدينية والاتجاهات العنصرية في محاكمته للاستعمار الفرنسي في الجزائر في روايته الغريب؟ أم أنه بقي حبيسًا للفكر الكولونيالي؟ أم أن ما قام به لا يعدو أن يكون مجرد لعبة أخرى يلعبها الاستعمار على مسرح الأدب؟ وكيف كانت نظرته إلى الآخر (الجزائري) وهو يتقاسم معه الأرض والسماء؟ أم أنه بقي وفيا لعصر الأنوار وما أحدثه من قيم جديدة كالأنسنة؟

يمكن أن نجد لتلك الأسئلة أجوبة من خلال تحليلنا لعناصر الرواية، ومعرفة ما إذا كان طرح هذه الأسئلة مشروعا أم لا، مستعينين في ذلك آليات تأويلية.

2. الرمز وتأويلية بول ريكور:

عُرف التأويل منذ القديم، عندما احتاج الإنسان إلى فهم كتبه المقدسة (التوراة، الإنجيل، القرآن الكريم)، وذلك بعد أن امتد الزمن بهذه الكتب، وبات من الضروري إيجاد آليات تساعد القراء على تجاوز ما يصعب فهمه. كما دعت التطورات الجديدة، على مر العصور، إلى إعادة فهم النصوص الدينية وفق مستجدات العصر، وفرضت على المشتغلين بالنصوص الدينية إعادة تأويلها بما يتفق ومتطلبات العصر.

وقد مر التأويل بمراحل عديدة؛ فقد بدأ بالتأويل اللاهوتي وانتهى بالتأويل الأدبي. ومن بين الذين اهتموا بالتأويل بول ريكور الذي حاول أن يجمع بين الإبستمولوجيا والأنطولوجيا، وهو –بهذا– يكون قد وضع نظرية للفهم تجمع بين ما هو علمي، وما هو إنساني في اللغة الأدبية.

جمع ريكور في فلسفته التأويلية بين عالمين مختلفين ظاهريا، ومرتبطين ببعضهما معا في آن واحد، هما: عالم علوم الطبيعة، وعالم علوم الروح كما سماها دلتاي. وقد حاول أن يفك هذا التعارض الذي جرى سابقا بين دلتاي وغادامير، يقول عادل مصطفى: " تمثل الهرمينوطيقا عند ريكور محاولته الإبقاء على كلٍّ من الطابع العلمي والطابع الفني للتأويل دون منح أي منهما منزلة مطلقة"[2]. ويتمثل الطابع العلمي للتأويل في التفسير، بينما يتمثل الطابع الفني له في الفهم.

وبالإضافة إلى اهتمام ريكور بالطابع الأنطولوجي والإبستمولوجي لتأويليته، فقد اهتم بتأويل الرمز لما يبعث عليه من تفكير وبحث.

وهو –بهذا–يكون قد أقدم على تأويل اللغة الرمزية، باسترجاع معانيها الخفية "وتخليصها من أسر الفهم الحرفي، ومن ضيق النظرة الوضعية التي تحاصرها بتحويلها إلى مجرد استعارة قائمة على المماثلة. فالرمزية لا تعمل إلا حين يتم تأويل بنيتها،"[3] أو اختزالها إلى أسباب دفينة، إلى هرمينوطيقا صراع التأويلات؛ تأويل يقوم على فهم النصوص، والثقافات لأجل فهم الذات في العالم.

كما أن النص يتحدث حينًا ويصمت حينا آخر؛ ولذلك تأتي مهمة التفسير والفهم لكشف المستتر الذي لم يقله النص، يقول علي حرب: "النص هو أكثر أو أقل أو غير ما يقوله ويصرح

به، إنه إمكان للتفكير وبيئة للفهم، ولهذا فالقارئ الجدير يقرأ دوما ما لا يقوله النص. وكل قراءة جديرة تملك مصداقيتها ومشروعيتها، ومشروعية القراءة تأتي من اختلافها لا من تطابقها مع النص المقروء"[4].

3.الهوية والاغتراب:

للوقوف على مفهوم الهوية كان لا بد من أن نعرج على مفهومها اللغوي؛ يقول لويس معلوف عن الهوية أنها: «حقيقة الشيء أو الشخصية المطلقة المشتملة على صفاتها الجوهرية»[5]؛ ومعنى ذلك أن الهوية لا تخرج عن أن تكون الشيء هو هو وليس غيره. ولا يبتعد هذا المفهوم عما جاء في المعجم الفلسفي؛ يقول عبد المنعم الحفني: «هوية الشيء، ووحدته، وخصوصيته، ووجوده المنفرد»[6]. واضح أن هناك تناغمًا بين المعنى اللغوي والمعنى الفلسفي؛ فما يعيشه الفرد من تصورات ينطبق مع ما يمكن أن يجده خارج ذاته.

في البداية، تطالعنا رواية "كامو" بعنوانها المثير الذي يدعو القارئ إلى أن يبحث في الخلفيات المضمرة التي دعت الكاتب إلى أن يضع مثل هذا اللفظ على واجهة غلافه، ولم يكن من المصادفة أن يوظف هذا العنوان اعتباطيا، وإنما هو يعبر عن مشكلة نفسية يعانيها. فهو جزائري المنشأ ولد وترعرع في بلد غير بلده فرنسا، لكنه يحيا في واقع الجزائر المحتلة، ويسعى إلى تمثيل فرنسا الحضارية التي بعثت بوالديه إلى هذا البلد.

فهو، بهذه الصورة، رجل مغترب، لا هو مندمج مع واقعه في الجزائر، ولا هو فرنسي يعيش ما يعيشه أهلها في وطنه الأم، يقول حسن حنفي: «الهوية مشكلة نفسية وتجربة شعورية؛ فالإنسان قد يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها في غيرها، الإنسان الواحد ينقسم إلى قسمين: هوية وغيرية، أو يشعر بالاغتراب إن مالت الهوية إلى غيرها أو انحرفت ... الهوية أن يكون الإنسان هو نفسه، متطابقا مع ذاته، في حين أن الاغتراب هو أن يكون غير نفسه»[7]. فكامو يعيش حياة فرنسا في الجزائر، وهو يعلم أنه منفصل عن هذا البلد الذي يحمل هوية أخرى غير الهوية التي يعيش بها. كما أنه لا يستطيع أن يعيش حياة الجزائريين كما هي، وبما أن "كامو" ليس شخصية عادية، فهو يعرف الخلل الناجم بين ما يحياه وبين ما يأمل تحققه، وهو يدرك حجم الاختلاف الحاصل بينه وبين ما يحسه من اغتراب في وطن ليس بوطنه، يقول حسن حنفي: «الإنسان الطبيعي هو الذي يوجد بين قطبي الهوية والاغتراب، ولا يمكن التخلص من الاغتراب أو الأقل درجة منه يحددها

التحقق الذاتي»[8]. ومن جهة أخرى، فإن العقل الغربي –ومنذ القديم–كان دائما يرى نفسه عن طريق الآخر؛ وهذا ما أكده محمد عابد الجابري بقوله: «إن العقل الأوروبي لا يعرف الإثبات إلا من خلال النفي، وبالتالي لا يتعرف إلى الأنا إلا عبر الآخر، وهذا شيء معروف في الفكر الأوروبي منذ القدم»[9]، ولن يكون هذا الآخر بالنسبة للمستعمر الفرنسي إلا في الشخصية الجزائرية التي يناصبها العداء، ويحاول –جاهدا–أن يطمس هويتها.

ويبدو –من خلال تصريح "كامو " على لسان أحد شخصيات روايته–أنه لم يكن سعيدا بعيشته في الجزائر، وأنه –أيضا–لا يرغب في حياة جديدة في فرنسا، يقول كامو: «ثم سألني إن لم يكن يهمني تغيير حياتي، فقلت: إننا لا نستطيع، مهما فعلنا، أن نغير من حياتنا. وعلى أية حال، فإن كل شيء في النهاية يتساوى بالنسبة لي، حياتي هنا ليست سيئة أبدا»[10].

4. بين الهوية الجزائرية والهوية الفرنسية:

4 . 1 صورة الجزائري في الرواية:

أظهر "كامو" الجزائريَّ، في روايته الغريب، على أنه عربي. غير أن اللافت في الأمر هو أن الكاتب، وعلى مدار كل صفحات الرواية، لم يورد وصفا للجزائري، لا من ناحية الايجاب ولا من ناحية السلب؛ فقد كان يتحاشى أن يقدم صورة كاملة له، بل إنه كان، عندما يذكر العربي، يذكر الموقف الذي هو فيه دون أية إضافات أخرى عدا حين تعلق الأمر بامرأة جزائرية قال: إنها ممرضة تقف بجانب والدته، يقول "كامو": «بالقرب من التابوت وقفت ممرضة عربية لابسة جلبابا أبيض وعلى رأسها وشاح من لون لامع»[11]، وهذا يشي بأن شخصية المرأة شخصية محتشمة ترتدي الزي الجزائري المحافظ.

أما عندما ذكر الكاتب الشبان العرب الذين يطاردون "ريمون"، فقد نقل لنا الخبر دون تلميحات إليهم، أو حتى ذكر انطباعات عنهم، يقول: «لقد كانت مجموعة من العرب يتعقبونه طوال اليوم، ومن بينهم شقيق عشيقته السابقة»[12]، ثم يواصل الكاتب تقديم الخبر من دون تعليقات: «رأيت مجموعة من العرب أمام حانوت التبغ، ينظرون إلينا في صمت، كما لو كنا قطعا من الحجارة أو الأشجار الميتة... إن هؤلاء العرب يضمرون شرًّا لريمون»[13]. إلا أنه وصف حال الجزائريين عندما تمكن مجموعة من شبان المستوطنين من إلحاق الأذى بهم وبعد أن أوسعوهم ضربا، يقول: «وصلنا إلى منبع صغير، يتدفق ماؤه على الرمال خلف صخرة كبيرة، كانا متكئين في هدوء، ويبدوان

هادئين، بل أيضا سعيدين في ملابسهما الزرقاء الملوثة»[14]. كما نقل لنا خبرًا فحواه أن معظم الذين يقبعون في سجون المحتل هم من العرب، يقول: «كانوا قد وضعوني في غرفة بها الكثير من الموقوفين، أغلبهم من العرب»[15].

ولكن لماذا لم يقدم "كامو" وصفا للجزائريين ويقف عند أحوالهم ويتحدث عن قضاياهم؟ أم أن هناك ما يضمره لهم؟ وما هو الكلام الذي سكت عنه ولم يقله؟

وهنا يأتي دور التأويل في إبراز المحجوب عنه في الكلام؛ يقول عادل مصطفى: «وعلى كل تأويل أن يشن هجوما على الصيغ الظاهرة في النص؛ فالخوف من المضي فيما وراء ظاهر النص هو ضرب من عبادة الأوثان، وضرب من السذاجة التاريخية في الوقت نفسه»[16]. لقد أراد "كامو" أن يقول أنّ هؤلاء العرب مجرد أشياء مهملة لا قيمة لها، ولذلك لم يلتفت إلى وصف حالهم وما يعانونه وما يمكن أن يشعروا به من أحاسيس تجاه ما يحدث لهم، ولأنهم لا يستحقون أن يقف "كامو" على حالهم ويبحث عن آلامهم، وهو لم يستطع –على الأقل من وجهة نظر الأدب–أن يكسر الحاجز النفسي الذي أقامه الاستعمار بينهم وبين الجزائريين، فكيف به أن يتنازل قليلا ويشعر بهم؛ يقول جان بول سارتر: «وقف الاستعمار سدا منيعا، وأقام حائطا سميكا فولاذيا بين المستوطنين وأهل البلاد الأصليين. فنحن نحتل الجزائر منذ أكثر من قرن، ولم يكد يقع –طوال هذه المدة–أي زواج مختلط أو تتحقق أية مودة فرنسية إسلامية، اعتقادا منه أن مصلحة المستعمرين هي محو الشخصية الجزائرية من أجل فرنسا فلو كانوا مؤمنين بالجزائر وتقدمها والإبقاء عليها، لعملوا على الاهتمام بالتنمية الاقتصادية والثقافية في الجزائر»[17].

وهو بذلك يضمر العداء لهم على أساس أنه مختلف عنهم، وفي هذا المجال تتحدد هوية الكاتب من خلال هذه الرؤية العدائية للجزائري، يقول هنتجتون: «حتى يمكن للناس أن يحددوا أنفسهم، فإنهم يحتاجون إلى آخر، من الواضح أن بعض الناس يفعلون ذلك، قال جوزيف جوبلز، أوه يا لروعة أن تكره. وقال أندريه مالرو، أوه من شعور بالارتياح أن تحارب أعداء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ويقول سيجموند فرويد: إن كل محاولة لإنهاء الحرب قد انتهت بفشل ذريع؛ فالإنسان لديه في داخله شهوة للكراهية والتدمير»[18]. ومن خلال هذا المفهوم للهوية، يجد "كامو" وغيره من المستوطنين هويتهم في معاداة الجزائري، غير أن الجزائري إذا اقترب من المستعمرين فهو مرحب به، «إذا كان العرب تابعين للفرنسيين يوصفون بـ"المخلصين الأوفياء. أما إذا أفلتوا من قبضتهم

أصبحوا "أعداء متمردين"، "نهابين"، "مخربين" بل و"سفاحين"»[19]. وهكذا هي الذهنية الاستعمارية التي تحاول أن تجد أصدقاء لها من داخل البلد ليساعدوها في الاحتلال وفرض السيطرة على الأوطان.

4 ـ 2 صورة المستوطن في الرواية:

تبدو صورة المستوطن في الجزائر قريبة من صورة الفرنسي وهو يعيش في بلده الأم؛ فهو يمارس حياته اليومية كما لو كان يحيا في شارع من شوارع فرنسا، يقول "كامو" على لسان أحد شخصيات روايته: «فقررت الذهاب للاستحمام، أخذت الترام للذهاب إلى الحمامات... وجدت في الماء ماري كاردونا، "وهي زميلته السابقة في الوظيفة والتي يمارس معها الحب"»[20]. كما أنه يذهب إلى السينما ويستمتع بآخر إنتاجاتها، ويجري هذا كله في يوم الأحد الذي هو عطلة المستوطنين، ثم إن شباب المستوطنين يتابعون آخر صيحات الأزياء ويقلدون مشاهير الغرب، «بعد ذلك مر شبان الضاحية، كانت شعورهم مدهونة، واضعين أربطة عنق حمراء، وجاكتات ضيقة جدا، جيوبهم مطروزة وأحذيتهم عريضة»[21].

ويربي المستوطنون الكلاب، ويسمحون لها بالبقاء في المنازل، كما يهتمون بالرياضة ومناصرة فرقهم المحلية، يقول كامو: «وصلت الترامات في ضوضاء، كانت تحمل من ملعب الضاحية مجموعات من المتفرجين جاثمين على المواطئ والبوابات. أما الحافلات التي تلت فكانت تقل اللاعبين الذين كانوا يصرخون ويغنون ملء حناجرهم»"[22]؛ فالحياة تبدو عادية بالنسبة للمستوطنين، ويجري هذا كله بعيدا عن الجزائريين المهمشين داخل قراهم، ولا يعني الكاتب إن كانوا أحياء أم أمواتا، ولا يهمه أن يذكر ما يعانونه من بؤس وشقاء، بل إن عدم ذكرهم يشي باستبعادهم من حياة المستوطنين وبفصلهم عنهم.

4ـ 3 هوية الجزائر في الرّواية:

صور "كامو" الجزائر على أنها امرأة من أصل عربي أندلسي، يقول كامو: «لما نطق اسم المرأة عرفت أنها من أصل عربي إسباني»[23]، وواضح أن كامو يحاول أن يتلاعب بتاريخ الجزائر، لأنه يدعي أنها عربية أندلسية في إشارة منه إلى أن هذا البلد هو، أيضا، مسلوب من طرف سكان لا يمتون بصلة إليه، رغم أن العرب الذين وفدوا إلى الجزائر جاءوا قبل الفتوحات الإسلامية في رحلة الفنيقيين الأوائل. ثم إن هؤلاء العرب لم يكونوا مستعمرين، بل كانوا فاتحين ومقاومين للغزو

الروماني والبيزنطي، واندمجوا مع السكان الأصليين. أما بالنسبة للأندلسيين الذين هاجروا إلى الجزائر أثناء سقوط الحكم الإسلامي في الأندلس، فهم قلة فروا بدينهم إلى شمال إفريقيا واندمجوا مع السكان الأصليين.

ومن الغريب أنه تجاهل الأمازيغ، ولم ينسب إليهم هذا الوطن، ربما لأنهم لا يشكلون نسبة كبيرة من السكان، أو لأنهم معزولون في قراهم الجبلية، وهم لا يندمجون مع الأجانب الغرباء بسرعة. ونظرا للخيرات الكبيرة التي خص الله بها الجزائر، فإن الكثير من الغزاة رأوا فيها الفردوس الموعود، ومن بينهم المستعمر الفرنسي الذي عشقها حتى الثمالة. ولذلك صور كامو الجزائر على أنها امرأة عاهرة خدعت الجميع واستمالتهم إليها، ولأن الاستعمار تلميذ غبي لا يفهم الدرس، راح يستغل البلاد والعباد، ولم ينتبه إلى ما حل بالجزائريين من ظلم وقهر وتجويع، يقول جان بول سارتر: «يبدأون باحتلال البلاد، ثم سلب الأرض من ملاكها واستغلالهم بأزهد الأجور التي لا تمسك الرمق، على أن هذه اليد العاملة الرخيصة تصبح، مع التصنيع، أغلى مما ينبغي. وهكذا ينتهي الأمر بانتزاع حق العمل من السكان الأصليين وهو حقهم الطبيعي، ولا يجد الجزائري، وهو في بيته ويقيم في أرضه وفي وطنه الخصب، إلا أن يسقط تحت وطأة الجوع»[24]. ويدّعي الاستعمار أنه يقوم بواجباته تجاه الجزائر التي أصبحت تحت سيطرته؛ فهو الذي يكفيها مؤونتها ويوفر لها معيشتها، في زعمه، غير أنه يلقي عليها باللوم ويتوعدها بالعقاب إن هي أخلّت بهذه العلاقة، وقد رمز "كامو " لهذه العلاقة بقوله: «إنه كان يعطيها بالضبط ما يكفيها للعيش. كان هو بنفسه يدفع أجرة غرفتها ويعطيها عشرين فرنكا يوميا لشراء الطعام. وثلاثمائة فرنك وستمائة للطعام، ويشتري لها من حين لآخر زوجا من الجوارب. مما يجعل هذه المصاريف تصل إلى الألف فرنك»[25]. ومع أن المستعمر لم يكن يوفر شيئا للجزائريين، بل إنه هو الذي أخل بالتزاماته وراح يستغل الجزائر أبشع استغلال، يقول ألبير كامو: «أنا أعطيك النقود فعلت معك الخير، وأنت مقابل ذلك تردينه لي بالشر ... ثم إنه وجد في حقيبتها اليدوية ورقة من أوراق اليانصيب، وأنها لم تستطع أن توضح له من أين حصلت على النقود لشرائها، أياما قليلة بعد هذه الحادثة وجد لديها بيانًا يدل على أنها اشترت سوارين من محل جبل التقوى ولم تعلمه بذلك. لقد صار واضحا أن في الأمر خديعة ما، جعلني أكرهها لكنني قبل ذلك ضربتها، ثم قلت لها حقيقتها، قلت لها إنها عاهرة»[26]. ولم تكن الجزائر لتتعلق بالمستعمر وتسمح له بأن يكون وصيا عليها، بل كانت دائما

تتوق إلى حريتها، يقول كامو: «ضربها حتى أسال دمعها في ما قبل لم يكن يضربها، كنت أصفعها فقط فكانت تبكي قليلا، ثم أغلق النوافذ وأرفّه عنها وينتهي الأمر كما جرت العادة، لكن المسألة صارت جدية وأعتقد أنني لم أعاقبها بما فيه الكفاية»[27]، ومع كل استهتار المحتل بالجزائريين مازال يعتقد أن بإمكانه تسليط المزيد من العقوبات عليهم، ولكن هيهات أن يفعل.

4 . 4 صورة فرنسا في الرّواية:

تعتبر فرنسا بمثابة أم للمستوطنين؛ فهي التي ترعاهم، وتخطط لهم، وتسلحهم، وتحافظ على كينونتهم في الجزائر، وهي تمثل -بهذا المعنى-الدعامة الفكرية والدينية والمادية التي يقوم عليها الاستعمار. غير أنّ فرنسا في لحظات ضعفها باتت غير قادرة على أن تمد المستوطنين بما يساعدهم على الاستمرار في مستعمراتهم، ولم تعد تفي بتعهداتها، ولذلك حاول المستوطنون أن يعتمدوا على ذواتهم في مرحلة من مراحل تاريخ الاستعمار في الجزائر ، وهذا ما أكده "كامو" في روايته بأن "جزائر المستوطنين" هي جزائر مستقلة عن فرنسا؛ يقول: « اليوم ماتت والدتي، أو قد تكون ماتت بالأمس»[28]، ويكشف بصراحة أنه لم تعد هناك علاقة تربط بينهما؛ يقول: « وفاة والدتي هو لا حدث بالنسبة له»[29]، ويعزو "كامو" هذا الانفصال بين المستوطنين والأم فرنسا إلى الجانب الاقتصادي. ومن جهة أخرى، فإن جزائر المستوطنين لم تعد قادرة على تلبية حاجيات فرنسا؛ يقول كامو: «يا بني العزيز، لست في حاجة إلى مبرر لقد اطلعت على ملف أمك، وأنت لا تستطيع أن تلبي حاجاتها، كانت في حاجة إلى من يرعاها، رواتبكم متواضعة»[30]. تم الانفصال بين فرنسا ومستوطنيها بسبب العجز المالي، ثم إن حماية المستوطنين كلف خزينة فرنسا الشيء الكثير، فلم يعودا في حاجة إلى بعضهما البعض بعد أن هدم الجانب المادي علاقتهما؛ يقول كامو: «سألني إن كنت قد قاسيت شخصيا نتيجة لذلك (وضع أمه في الملجأ)، فقلت: لم يكن أحد منا نحن الاثنين ينتظر شيئا من الآخر، ولم نكن نحن الاثنين ننتظر شيئا من أي شخص آخر، وكان كل واحد منا قد تعود على حياته الجديدة»[31].

5 . من الأديان إلى الأنسنة:

سعى الغرب منذ القرن الخامس عشر الميلادي إلى نهضة أوروبية؛ بدأها بإصلاح ديني، وانتهى به المطاف إلى إبعاد الدين عن الحياة العامة. وقد كان لفلاسفة التنوير دور كبير في الاعتراف بمكانة العقل وتحرير الأفراد من سلطة الكنيسة؛ تقول دوريندا أوترام: «التنوير هو الإيمان بقوة العقل

البشري على أن يغير المجتمع، وأن يحرر الفرد من قيود العادات والسلطات الاعتباطية، ويستند كل هذا إلى رؤية عالمية يدعمها العلم وليس الدين أو التقاليد»[32]. وعلى إثر ذلك، بدأ التحول من الدين إلى العلم ومن الله إلى الإنسان ومن الماضي إلى الحاضر والمستقبل.

وقد ظهرت النزعة الإنسانية "الأنسنة" في عصر النهضة الأوروبية، نتيجة للجهود التي بذلت من طرف كل من مارتن لوثر وجون هوس وديديه إيراسيم، وتُعنى هذه النزعة بحرية الإنسان ومركزيته في الوجود.

وللوقوف على معنى "Humanisme"، كان لا بد لنا أن نبحث عنها في المعجم اللغوي؛ وتعني النزعة الإنسانية: "بأنها تتميز باحترام الشخص لقيمته الإنسانية"[33]، ويعرف "أندريه لالاند" النزعة الإنسانية في الفكر الغربي: «بأنها مركزية إنسانية مترويـة، تنطلق من معرفة الإنسان، وموضوعها تقويم الإنسان وتقييمه واستبعاد كل ما من شأنه تغريبه عن ذاته، سواء بإخضاعه لقوى خارقة للطبيعة البشرية، أو بتشويهه من خلال استعماله استعمالاً دونيًّا، دون الطبيعة البشرية»[34].

وقد ورد المعنى نفسه في "معجم الفلسفة"؛ حيث تم تحديد مفهوم النزعة الإنسانية على أنها تعني إعادة الكرامة إلى القيمة الإنسانية، وتدعو إلى التفكير العقلاني، وتؤكد على تفوق الإنسان بذاته، وليس عن طريق القوى التي لا تخضع لمنطق العقل[35].

وتجمع المعاجم اللغوية والفلسفية في تعريفاتها للنزعة الإنسانية على التعويل على دور الإنسان ومركزيته في الوجود، وأنه وحده من يتخذ قراره بناء على عقله ومعارفه، وذلك دون أن يكون للدين والتقاليد أي سلطة عليه.

وهذا اعتقاد يتعارض بشدة مع الأديان، غير أن هذا لا يعنى أن النزعة الإنسانية، في الفكر الغربي بجميع تلويناتها وتعبيراتها، هي خروج عن الدين، "فيمكن أن نميز بين النزعة الإنسانية المسيحية المؤمنة وهى لا تزال تمثل تيارا فلسفيا حتى هذه اللحظة في أوروبا يكفى أن نذكر كأمثلة عليها فلاسفة كبارًا مثل "كارل ياسبرز" الألماني " جابريل مارسيل" الفرنسي"[36]، والنزعة العلمانية الملحدة التي ترفض التقاليد والطقوس الدينية كوسيلة لضمان صلاح الإنسان، ويمثلها كل من جان بول سارتر، وألبير كامو، وهيدغر وغيرهم. وقد وظّفت الأنسنة في مجالات متنوعة، كالأدب والثقافة والتاريخ والدين والإنسان في علاقاته الاجتماعية.

ومن خلال ما جاء عن النزعة الإنسانية، فإن "كامو" لم يكن إنسانيًّا في أدبه، ولم يكن قادرا على استخدام عقله في قول الحقيقة للفرنسيين كما فعل جان بول سارتر، ولم تكن له الشجاعة الكافية في الحديث عن مأساة الشعب الجزائري من خلال أدبه، رغم أنه انتمى إلى الشق العلماني للنزعة الإنسانية، ومع ذلك لم يدفعه ذلك إلى أن يتخلى عن سياسات المحتل العنصرية، وبإمكاننا أن نجد الكثير من الأمثلة التي تدلّل على انحراف "كامو" في روايته عن الخط الذي كان يجب أن يتساوق معه في القسم الذي خصصه في آخر روايته لمحاكمة الاستعمار والذي مثله بطل الرواية. وتعد هذه المحاكمة مجرد محاكمة صورية لا غير؛ لأنها لم تحاول أن تلامس الوجع الإنساني الجزائري، فقد كانت في معظمها تبحث في نفور المتهم المستوطن من أمه فرنسا، وفي أسباب انفصالهما وعدم اهتمامه بها، ولم تتناول القضية الأساس المتمثلة في قتل المستوطن للعربي بأربع رصاصات؛ ونضرب لذلك هذا المثال الذي ورد في الرواية " فهمت أنه سوف يتحدث من جديد عن أمي، وأحسست في نفس الوقت بالكثير من الملل من جراء ذلك"[37]، ويستمر القاضي في مساءلة المتهم عن هذه القضية طيلة المحاكمة، بينما القضية الأساس سكت عنها ولم يحاول أن يبحث فيها، وبالعودة إلى قتل العربي في الرواية، نجدها محاولةً من الفكر الكولونيالي لقتل كل ما يمت بصلة إلى هذا الوطن. وهكذا كان المستعمر الذي يقول عنه فرانز فانون: "إنه الشر المطلق. إنه عنصر متلف يحطم كل ما يقابله، عنصر مخرب يشوه كل ما له صلة بالجمال أو الأخلاق، إنه مستودع قوى شيطانية، إنه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعي لها ولا سبيل إلى إصلاحها".[38]

خاتمة:

تناولنا في البحث تعريفا للهوية، ومن ثم حاولنا أن نتبين هوية الكاتب وهوية الجزائريين والمستوطنين، وبحثنا في صورة الجزائر وفرنسا من منظور أدبي، وذلك من خلال التأويل. كما ألقينا الضوء على مفهوم النزعة الإنسانية. وقد خلص البحث على النتائج الآتية:

يبدو أن كامو مازال على عهده فرنسيا حتى النخاع، رغم عيشه في الجزائر، وهو لا يعترف بالهوية الجزائرية؛ لأنه تجاوزها ولم يعبر عنها ولا عن آمالاها وتطلعاتها في روايته، بل إنه تنساها واعتبرها مجرد شيء.

عزا كثير من النقاد إلى رواية الغريب أنها من الروايات التي تناولت العبث الذي عمل عليه كامو في أدبه، غير أننا رأينا أن معظم ما جاء في الرواية هو مرتب ومنظم وفق أحداث منطقية إذا أولناها بالصورة التي رأيناها في متن البحث.

ظهر كامو على حقيقته في هذه الرواية، كما ظهر أيضا أن توظيف الحركات الحداثية مثل النزعة الإنسانية، هي مجرد واجهة يتغطى بها الوجه الغربي، لأن قيمها لا تشمل الجميع، وإنما هي موضوعة للغرب فقط، أما إذا اتجهت نحو الشعوب الأخرى فإنها تصبح بلا معنى.

هوامش:

[1] إيمانويل كانط، تأملات في التربية، ما هي الأنوار؟ ما التوجه في التفكير؟ تر: محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، ط1، تونس، 2005، ص85.

[2] عادل مصطفى: فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2003، ص335.

[3] بول ريكور: نظرية التأويل، نظرية التأويل، تر: سعيد الغانمي المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2006، ص16.

[4] علي حرب: أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص33.

[5] لويس معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، ط19، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص:875.

[6] عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000، ص911.

[7] حسن حنفي: الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2012، ص11، ص12.

[8] المرجع نفسه، ص24.

[9] محمد عابد الجابري: مسألة الهوية العروبة والإسلام ...والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط4، 2012، ص173.

[10] الغريب، تر: محمد بوعلاق، دار تلانتيقيت، بجاية، الجزائر، 2015، ص55.

[11] المصدر نفسه، ص20.

[12] المصدر نفسه، ص54.

[13] المصدر نفسه، ص62.

[14] المصدر نفسه، ص69.

[15] المصدر نفسه، ص84.

[16] عادل مصطفى: فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا، ص 176.

[17] جون بول سارتر: عارنا في الجزائر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، دط، دس، ص24.

[18] صمويل ب هنتجتون: من نحن؟ تر: أحمد مختار الجمال، السيد أمين الشبلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2009، ص59.

[19] مجموعة من المؤلفين: صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية، مجلة المعرفة، السعودية، ط1، 2003، ص72.

[20] ألبير كامو: الغريب، ص33.

[21] المصدر نفسه، ص36.

[22] الغريب، ص37.

[23] المصدر نفسه ص46.

[24] جون بول سارتر: عارنا في الجزائر، ص15.

[25] الغريب، ص44.

[26] المصدر نفسه، ص44.

[27] المصدر نفسه، ص45.

[28] المصدر نفسه، ص17.

[29] المصدر نفسه، ص17.

[30] المصدر نفسه، ص19.

[31] المصدر نفسه، ص101.

[32] دوريندا أوترام: التنوير، تر: ماجد موريس إبراهيم، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2008، ص59.

[33] LE Pluridictionnaire Larousse – Librairie Larousse 1977 , 17 rue du Montparnasse 75298. Paris Cedex 06 France, p684

[34] أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، المجلد2، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، 1996، ص569.

[35] مصطفى حسيبة: المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2009، ص 104.

[36] هاشم صالح: مدخل إلى التنوير الأوروبي، دار الطليعة لبنان، ط1، 2005، ص77.

[37] الغريب، ص100.

[38] فرانز فانون: معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، جمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، مصر، ط2، 2015، ص44.